مارينا العابرة للجدران

قراءة في سيرة مارينا أبراهموفيتش

نزيه بحراوي

سيتعرف الجمهور العريض سنة 2010، على فنانة غريبة الأطوار اسمها مارينا أبرهاموفيتش، يقتصر نشاطها الفني على الجلوس لساعات طويلة، بينما يتعاقب الجمهور للنظر في عينيها. بعضهم لا يصدق ما يراه، وبعضهم الآخر تغرورق عيناه بالدموع، فيما يبتسم الباقون محاولين التواصل مع الفنانة الشبيهة بتمثال يتنفس. كانت هذه "البيرفورمانس" بعنوان "الفنان حاضر" The Artist is Present وقد تم تقديمها لمدة ثلاثة أشهر ضمن معرض استرجاعي لمجمل أعمال الفنانة الصربية في متحف الفن الحديث بنيويورك MoMA الذي يعتبر قبلة الفن المعاصر. منذ ذلك الحين، لن تتوقف مارينا التي دخلت في عقدها السابع، عن اختراق الجدران الفاصلة بين عالم الفن المعاصر النخبوي والثقافة الكونية العريضة...

وفي 2016 ستنشر سيرة ذاتية كتبتها بتعاون مع الكاتب الأمريكي جيمس كابلان James Kaplan، بعنوان "اختراق الجدران"، تعود فيها لأهم المحطات في سيرتها الحياتية والمهنية، وهي وثيقة جديرة بالاهتمام، لكونها ترصد يوما بيوم وسنة بسنة تجربة هذه الفنانة الفريدة من نوعها... وهو كتاب جدير بالقراءة لكل من يحركه الفضول للتعرف على الإمكانيات التعبيرية الخصبة للفن المعاصر، وفرصة للقاء هذه الفنانة المدهشة للغوص في تفاصيل حياتها وكواليس اشتغالها...

طفولة شيوعية:

تفتتح مارينا سيرتها باسترجاع أحداث طفولتها اليوغوسلافية في كنف "البرجوازية الحمراء"، وهي النخبة التي كانت تعيش في رفاهية مقارنة ببقية الشعب. فقد كان أبوها من المقربين للماريشال تيتو الذي حكم البلد بقبضة من حديد، أما أمها فقد كانت مديرة لمتحف الثورة وقيّمة على شراء التحف الفنية التي يتم استعمالها لتزيين المؤسسات العمومية، ولاحقا ممثلة البلد في اليونيسكو.

تقول مارينا إن الاشتراكية كانت فكرة تجريدية بالنسبة لأمها، التي بالمناسبة كانت تنحدر من أصول أرستقراطية، وقد قرأت كتب ماركس وإنجلز وتبنّت أفكارهما لأنها كانت نوعا من الموضة في الأوساط الطلابية. أما الأب فقد كان ينتمي لعائلة فقيرة، ولذلك لم تكن الاشتراكية تمثل بالنسبة إليه ترفا فكريا بل الطريق الوحيد للخلاص.

وتصر مارينا على أنها لم تكن تحظى بما تحظى به باقي البنات في سنها، وذلك لخضوعها لنوع من الانضباط الطبقي الذي كانت تفرضه أمها. في المقابل كان الأبوان حريصين على تمكينها من كل المنتجات الثقافية التي تطلبها، فكانت تحصل على أي كتاب تريده، وعندما ستطلب منهما معدات للرسم، سيسمحان لها بتحويل إحدى غرف البيت لورشة، بل وسيدعو الأب أحد أصدقائه الرسامين ليقدم لها بعض الدروس.

عندما سيزور الفنان فيلو فيليبوفيك بيت العائلة، لن تتوقع مارينا المراهقة أبدا الدرس الذي جاء لتقديمه لها. في ورشتها الصغيرة، سيضع قطعة قماش على الأرض، سيسكب فوقها علبة لصاق، مضيفا بعد الرمل، ومعه مسحوقا أصفر وأحمر وأسود، ثم سيدلق نصف لتر من البنزين، قبل أن يشعل عود ثقاب ويلقيه في اتجاه اللوحة لتنفجر. عندئذ سيقول: "هذا غروب شمس"، ويرحل.

كان هذا أول درس تلقته مارينا، جعلها تفهم أن "سيرورة الخلق" أهم من الخلق نفسه. وسترافق هذه الفكرة مخيلتها منذ ذلك الحين، إلى اليوم الذي ستكون فيه مستلقية على العشب تنظر إلى السحاب وبقايا دخان خلّفه عبور طائرة في الهواء، سيبدو لها المشهد أقوى من أي لوحة.

وستظل هذه الفكرة تطن في رأسها عندما ستلتحق بأكاديمية الفنون الجميلة ببلغراد، وتنضم إلى مجموعة طلائعية مكونة من ستة فنانين شباب. تصف مارينا هذه المرحلة كفترة سعيدة جدا من حياتها، لا يتوقف خلالها أفراد العصابة عن النقاش حول ضرورة تجاوز الفن الكلاسيكي المحدود في الرسم والنحت، متطلعين إلى فن لامادي، فن يخترق كل الحدود التي تفصله عن الحياة، أو يستعمل الحياة كمادة مباشرة لعمله. خلال هذه الفترة سيتربى بداخلها عشق غامض لحوادث السير، ستواظب على تصويرها فوتوغرافيا قبل تحويلها إلى لوحات مرسومة، وستنشأ صداقة بينها وبين موظفي مخافر الشرطة الذين يخبروها كلما حصل حادث لتحضر لتصويره.

في نهاية الستينات، ستنطلق ثورات الشباب في كل أنحاء أوروبا، وسيكون الفنانون الشباب جزءا أساسيا منها، وخلال هذه الفترة، ستحضر مارينا لخطاب جياش المشاعر سيقدمه أبوها، فاضحا تجاوزات "البرجوازية الحمراء" وانحراف الثورة عن مسارها قبل أن يعلن استقالته من الحزب الحاكم، ملقيا ببطاقة عضويته إلى الجماهير الشابة في حركة مفعمة بالأداء المسرحي. قبل أن تحكي عن صدمتها وإحساسها العميق بالخذلان من موقف عموم الطلاب الذين كانوا مستعدين للقبول بأي شيء سيقترحه الرئيس تيتو، كجواب عن احتجاجاتهم، ويعدّون الاحتفالات بثورتهم المزيفة قبل حتى أن يلقي خطابه، كانت هي مستعدة لدفع النضال إلى حدوده القصوى، ومنذ ذلك الحين، هجرت الفنانة الشابة الآمال

السياسية الكبرى، وقلصت أفقها في دائرة الفن، قبل أن تنحسر دائرة الفن بدورها في جسدها.

ستعرف الستينات انتعاش مختلف تيارات الفن الطلائعي، وسيرافقها ظهور "الفن المفاهيمي" ليبدأ طلاب أكاديمية الفنون الجميلة في السماع عن فن "البيرفورمانس" و"البودي آرت"، وسيتواصل النقاش بين "مجموعة الستة" متعطشا لكل ما يمكن معرفته عن "الفنانين المفاهميين" في أمريكا وأوروبا الغربية، وسيكون الخيط الرابط بين كل هؤلاء الفنانين الشباب رفضهم الفصل بين الفن والحياة، وعزمهم على استخدام الحياة اليومية وتحويل الأدوات العادية لتحف فنية، وكانت تلك نماذج استلهموها لتقديم أعمالهم الأولى في مركز الشباب الثقافي ببلغراد. خلال هذا العرض الأول، ستطلق مارينا على مشروعها اسم "اغسل معي"، ستقترح الفنانة الشابة على الزوار أن ينزعوا ملابسهم لتغسلها لهم وتنشفها وتكويها، ليرتدوها من جديد ويغادروا التجربة نظيفين من الداخل والخارج، مجازيا وفعليا، لكن المركز سيرفض أن يسمح لها بتنفيذ هذا المشروع.

وفي سعيها للتحرر من الفن "ثنائي الأبعاد"، وخلق فن بلا حدود مادية، ستولع بالاشتغال على الصوت، وستبدأ بتسجيل صوت انهيار اسمنتي تذيعه عبر أبواق فوق الجسر الفاصل بين الأكاديمية والمدينة. بصريا كان الجسر لايزال قائما، لكن صوت انهياره كان يخلف وقعا نفسيا مدهشا. ستستعمل بعد ذلك التقنية ذاتها لتأليف لوحات حية، مخفية البوق داخل الشجرة الوحيدة الموجودة خارج أحد الأروقة الفنية، فكان ينبعث صوت العصافير معطيا الانطباع أننا في عمق الأدغال بينما المشهد يدور في أحد شوارع بلغراد الكئيبة.

وستثير المجموعة انتباه مدير معرض فني اسكندنافي، جاء للتعرف على المواهب

الجديدة في أوروبا الشرقية، ليقدم لهم دعوة مفتوحة رغم عدم تحمس السلطات الثقافية اليوغوسلافية للفكرة. وهكذا ستسافر مارينا لمدينة إدنبرة رفقة زملائها، وسيمكنها ذلك من الاطلاع على أعمال فنانين طلائعيين مرموقين في تلك الحقبة. وستدشن بذلك السفر حياة تجوال ستمتد عمرا كاملا، ستعبر فيه القارات الخمس. وستلتقي منذ بداية مشوارها فنانا ألمانيا يلقب نفسه بأولاي، تسكنه نفس الهواجس الإبداعية، لتنشأ بينهما قصة حب وشراكة فنية شديدة الخصوبة.

مارينا وأولاي:

عند لقائها بأولاي، لن تجد فيه شريك الحياة فقط بل التوأم الروحي الذي سينصهر معها ليؤلفا كائنا جديدا، ينتج فنا مضاعفا. خلال اثنتي عشرة سنة سينجز الثنائي أعمالا ستصبح الأغنى والأعمق في مسيرتهما الفنية. لن يمنعهما فقرهما من السفر حول العالم، وخوض حياة الرحل والعيش داخل شاحنتهما الصغيرة، متنقلين من معرض إلى معرض، وإلى أي مكان يقترح عليهما أن يقدما فيه أعمالهما. وقد كانت أعمالا قاسية وعصية على المشاهدة، تكتسي ضغطا نفسيا كبيرا وعنفا جسديا في أحيان كثيرة. ومعظم هذه الأعمال تشتغل على تيمة العلاقة بين الرجل والمرأة، وتستكشف مساحتي الأنوثة والذكورة باستخدام الجسد كأداة تعبيرية.

في أحد هذه الأعمال الذي يحمل اسم "ضوء/عتمة" Light/Dark يمكننا مشاهدتهما يصفعان بعضهما بقوة متصاعدة وفق إيقاع متواصل، حتى يستسلم أحدهما بعد عشرين دقيقة. وفي عمل آخر بعنوان " علاقة في المكان"، تم تقديمه في بينالي فينيسيا سنة 1976، ويدوم لثمان وخمسين دقيقة، نراهما يجريان في اتجاه بعضهما عاريين، يرتطمان بكل قوة، قبل أن يعيدا الكرة بشكل عبثي...

وستأخذهما رحلتهما للعيش رفقة قبائل بدائية في الصحراء الأسترالية لستة أشهر، حيث اكتشفا نمط حياة أقوام "الأبوريجين" الفريد من نوعه، الذين لا تحتوي لغتهم على أي إشارة إلى الماضي أو المستقبل، إذ إنهم لا يعرفون سوى الحاضر. ويقضون يومهم في اجتناب منهجي للحركة وللإقدام على أي عمل، بسبب الحرارة الشديدة.

وستفرز هذه التجربة بيرفورمانس بعنوان "العثور على الذهب" Finding Gold، وتقتضي من مارينا وأولاي الجلوس في مواجهة بعضهما لساعات طويلة، مع الصيام التام عن الأكل والكلام لمدة أسبوعين. ويبدو أن أصعب ما في هذه التجربة، هو بالتحديد الجلوس في نفس الوضع لساعات طويلة، إذ إن الجسد يبدأ بمحاولة التململ مع مرور الدقائق الأولى، ومع مقاومة الفنانين تكبر رغبته في التحرك لدرجة أن الألم يصبح عملاقا. خلال هذه البيرفورمانس، سيفشل أولاي في تحمل الألم عدة مرات وستنتصر عليه مارينا، وفي غياب إمكانية الكلام سيكتبان لبعضهما الرسائل حول مدى ضرورة مواصلة التجربة...

غير أن التجربة لن تتوقف، بسبب إصرار مارينا على الصمود، واضطرار أولاي لمجاراتها، بل وستتطور إلى مشروع جديد بعنوان "عبور البحر الليلي" Nightsea Crossing وهو مشروع سيدوم تسعين يوما في تسعين معرضا حول العالم، يقوم فيه الثنائي بالجلوس أمام بعضهما في صمت ليوم كامل، بينما يتوافد الجمهور لمتابعة هذا المشهد الغريب، الذي يبدو لأول وهلة كصورة مجازية لحرب باردة بين زوجين. وفي هذه المرة سيتحول الألم الباطني إلى خطورة صحية حقيقية، خصوصا بالنسبة لأولاي الذي سيحذره الأطباء بأن عظامه ستمزق جلد مؤخرته إذا ما واصل المكوث بدون حركة.

ومرة أخرى أصرت مارينا على عدم التراجع، فأخذت الهوة تكبر بينهما، وسيقتضي عملهما الأخير قطع سور الصين العظيم مشيا على الأقدام، منطلقين من كلا

الطرفين للالتقاء في الوسط، وهي مسافة تقدر بأربعة آلاف كيلومتر، وقد كانت تجربة شديدة القساوة دامت لأكثر من ثلاثة أشهر، كان يجب أن يمشي كل واحد منهما عشر ساعات يوميا، وكانت النتيجة أن انتهت شراكتهما في الحياة والفن.

انطلاقة جديدة:

وبعد فترة من الكآبة في أمستردام، ستبدأ مارينا صفحة جديدة في مسارها الفني، ليست الأكثر خلقا وإبداعا بالضرورة، لكنها أكثر غزارة وإنتاجا من ذي قبل، إذ تنوعت منذ ذلك الحين أنشطتها بين الممارسات شبه المسرحية، والفوتوغرافيا والفيديو آرت وصناعة منحوتات وقطع أثاث من معادن تؤثر على الطاقة النفسية للبشر، وانهمكت في السفر وتدريس البيرفومانس حول العالم، بل إنها أخذت تنزلق بالتدريج لعالم الإشهار والموضة حتى أصبحت المديرة الفنية لجيفانشي...ومن المفارقات أنها طوال هذه الفترة البرّاقة من حياتها، ظلت مُقبلة على أسفارها الروحانية في الهند والتيبت والأدغال الأمازونية، مواظبة على الصيام عن الأكل والكلام لفترات تمتد أحيانا لثلاثة أشهر، ومستكشفة باستمرار المسافة الفاصلة بين العقلانية واللاعقلانية.

وعندما غادرت أمستردام للاستقرار بنيويورك، كانت فنانة شبه مجهولة في مدينة يُقال إنها تضم أكثر من أربع مائة ألف فنان، يتنافسون بشراسة للعثور على فرص شغل. وستنجح مارينا في هذه الغابة الجديدة ليس في العثور لنفسها على موطئ قدم فحسب، بل إنها ستنتقل بفن البيرفومانس من كونه ممارسة طلائعية وتجريبية نخبوية، إلى الانتشار في أواسط الجمهور العريض. وعندها سيبرمج متحف الفن الحديث بنيويورك -MoMA- معرضا استرجاعيا لمجمل أعمالها تحت عنوان "حضور الفنان"، حيث سيتزاحم الجمهور لرؤية هذا الشيء الغريب، الذي تكتفي فيه الفنانة بالجلوس على كرسي، ويتعاقب الزوار للجلوس

أمامها والنظر في عينها مباشرة. هذه البيرفرمانس التي ربما تكون الأكثر راديكالية في بساطتها، تعد مرآة لتلك التي قامت بها رفقة شريكها أولاي قبل سنوات، عندما كانا يجلسان أمام بعضهما بدون كلام لساعات طويلة.

بعد كل تلك السنوات فهمت الفنانة أن حبها الحقيقي وشريك حياتها يتمثل في الإبداع، ثم في الجمهور الذي أصبح بوسعه أن يجلس للنظر في عينيها مباشرة. وستعرف هذه البيرفومانس نجاحا باهرا، إذ سيحضرها أكثر من 750 ألف زائر، من بينهم أناس عاديون وشخصيات مرموقة، وستصبح فيديوهاتها في اليوتوب تحظى بمتابعة على نطاق واسع...

تتحدث مارينا في ختام كتابها، عن نجاتها من قبيلة فناني السبعينات الذين انقرضوا كليا، وعن انشغالها اليوم بحفظ ذاكرتهم، وهواجسها في الانكباب على توثيق ما تسميه "الفن اللامادي" الذي يستحيل حفظه مثل اللوحات والمنحوتات، والذي أفردت له معهدا خاصا يحمل اسمها، ويتعهد بنقل منهجيتها للفنانين الشباب الراغبين في ذلك...